

تحديات وجه اللغة العربية التبشير واللغة العربية

الأستاذ أنور الجندى

(القاهرة)

واجهت اللغة العربية منذ أوائل العصر الحديث تحديات خطيرة جائرة من خلال النفوذ الاستعماري الذي سيطر على العالم العربي ، ورأى في اللغة العربية عاملا من العوامل الخطيرة التي تعارض تثبيت قواعده . ومن هنا فقد عمد النفوذ الاستعماري الى عملين خطيرين :

اولهما : تجميد اللغة العربية عن التوسع في العالم الاسلامي

ثانيهما : توسيع نطاق اللغات الاجنبية وتشجيع اللهجات المحلية

وقد كان لمخطط التبشير الذي نفذته الاستعمار في العالم العربي اثره الواضح

في هذا المجال

الدعاة الى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة يختار ان يمشي في حي وطني « لكي يستقي العامية من منابعها الاصلية ولا يدون الا ما يسمعه » ثم يدون ما يسمعه باذنه على كم قميصه خوفا من ان يلاحظه احد المتكلمين فيفقد طبيعته وحرية في الكلام »

وقد شغل عدد من هؤلاء الاجانب بأمر «العامية» المصرية واهتموا بها والفوا عنها وفي مقدمتهم ولهم سبتيا ، وكارل فولرس ، وسلدن ولومور ، ولهم ويلكوكس . وقد بدأ ذلك منذ 1880 واستمر حتى عام 1926 تقريبا .

وفي خلال ذلك كان لطفي السيد وقاسم امين وسلامة موسى قد حملوا لواء هذه الدعوة ثم اتصل ذلك بالدعوة التي دعاها عبد العزيز فهمي عام 1941 عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية هذا في مصر وفي المغرب تولى كولان ومن بعده ماسينون لواء هذه الدعوة وفي لبنان ظهر كثير من الدعاة الى الحروف

فقد وجه التبشير الى اللغة العربية حملة ضخمة فوامها حقيقة اساسية هي ان القضاء على القرآن مصدر الاسلام وقانونه الاسلامي يتطلب القضاء على اللغة العربية الفصحى ولما كان التبشير والنفوذ الاستعماري لا يستطيع ان يكشف هذه الحقيقة صراحة فانه اخفاها وراء كل خطوة اتخذها بشأن الدعوة الى العامية او مهاجمة اللغة العربية وانتقاصها او الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية .

وتكشف جميع النصوص التي بين ايدينا على ان هذا الفرض الدليني واضح في عقل كل من يتصدى لهذا الفرض ، ويبدو خطر الدعوة الى تحطيم اللغة العربية واضحا حينما نرى ان عددا كبيرا من البشرين والمستشرقين قد تصدوا للكتابة في هذا الموضوع واقاموا من انفسهم خداما لهذه الغاية لا يرون بأسا في التخفي وتغيير شخصياتهم في سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى ان « ولهم سبتيا » اول

اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدموة التي حمل لواءها التبشير اساسا لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية انما يرمي الى تمزيق اللسان العربي في العالم الإسلامي كله وليس العربي وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية باحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى في كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة التي كان قوامها هذا الكتاب المنزل والذي حفظ وحدة اللغة العربية طوال اربعة عشر قرنا .

ويؤكد الباحثون ان اهتمام الاجانب بالعامية « لم يكن من أجل البحث العلمي - ولا من أجل حاجتهم الى معرفة لهجات البلاد العربية التي تقتضي مصالحهم ان يعيشوا فيها - وتعاملوا مع أهلها وانما من أجل القضاء على العربية الفصحى واحلال العامية محلها (1) »

ومن الواضح ان هؤلاء الاجانب من المبشرين هم الذين وضعوا في مؤلفاتهم هذه الخطة الكاملة التي ما يزال يستقي منها كل دماء الشعوبية والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من ادعاءات حول ما يصنفونه بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واتهام اللغة العربية بانها لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة والفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة .

ولقد يدهش بعض البسطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الاجنبي باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الاسلام والثقافة وكيان الامم لما دهشوا ، فاللغة هي روح الامة ومزاجها ، وهي ينبوع ما عند الامة من المزاج الخلقي والشعور النفسي .

فلا تفكر الامة الا بلفتها ، والفرق بين الفكر وبين اللغة دقيق وخطير ، ولذلك فان القضاء على اللغة انما يراد به القضاء على روح الامة وانفساده .

وفي هذا يقول المازني :

« ان الانسان لا يستطيع ان يفكر الا بالانفاظ فهي وحدها أداة التفكير فلا سبيل اليه بدونها ومن المستحيل ان تمثل معنى مجردا من الفاظ معينة ، ولكل

(1) كتاب تاريخ الدموة الى العامية

لغة اساليبها وطرائفها فاساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للاساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة ومن هنا يتفق وينشأه ابناء كل لغة ويختلفون عن ابناء كل لغة اخرى ، وهذا هو الفرق بين الانجليزي والفرنسي ، وما بين الانجليزي والهندي . »

وتمتاز اللغة العربية في هذا المجال عن اللغات الاخرى بان لها « كتابا » هو رسالة السماء الى المسلمين ، ومن هنا فهي تترايط بمد الجماعة العربية التي تتكلمها بجماعة اخرى تزيد خمسة اضعاف من المسلمين الذين يجدون في هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ، ومن هنا فقد اصبح لغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار ان يواجهه بحزم فحيث يذهب الاسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار الى تجميد اللغة العربية في مختلف بلاد العالم الاسلامي التي سيطر عليها واعان لفته الاجنبية على السيطرة ، كما خلق من اللغات المحلية قوى يركز عليها لمحاربة اللغة العربية .

ومن هنا وفي سبيل اقصاء القراءن من ثقافة الامم المسلمة سيطر النفوذ الاجنبي على وسائل التعليم وادارها بلفته التي اصبحت هي اللغة الاولى في كل قطر محتل ، واجرى تجميد المعاهد الاسلامية الخالصة كالازهر والقرويين وقد اشار المبشر الاكبر «زويمر» الى خطورة اللغة العربية حين قال :

« ان اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف اجناسهم ولفاتهم » وكان هذا اشارة الى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القراءن .

وهذا هو المعنى الذي تلفت اليه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في حملته على لطفي السيد ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كان الرافعي يعرف ان الهدف من ذلك هو احلال « لغة وسطى » قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يعتمد المسلمون عن لغة القراءن البليغة وبذلك يصبحون عاجزين عن فهم القراءن او التعامل معه وهذا ما يهدف اليه الاستعمار .

انه يؤدي الى حصر العلم في طبقة ضيقة جدا من الامة ويقلل الاساندة الكفاء ويلاشي القدرة العلمية والفنية التي بلغتها البلاد بما يميز هذه اللغة شيئا فشيئا .

ونصح المستر بلنت للمصريين والعرب بان يحافظوا على لغتهم ودينهم، فقال اذا اراد المصريون ان ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم فعليهم الاحتفاظ بما احتفظت به كل امة مهضومة ، وهو « الدين واللغة » فان الامة التي تقبل لغة الغاصب تشكل على نفسها اللد والطاعة العمياء والامة التي تقبل دين من اقتصب بلادها تخون شرفها الوطني

ولعل اخطر ما تحمله خطة الغزو الاجنبي بالنسبة للغة العربية هو ما حاوله « ويلكوكس » من تاصيل للعامية والادعاء بانها لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية وانها جاءت من لغة اخرى ماتت هي اللغة البونية ، فقد نشر رسالة عام 1926 بعنوان « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية » : زعم فيها ان اللغة التي يتعلمها الناس من حلب الى مراكش بما في ذلك مالطة هي اللغة الكنعانية او الفينيقية او البونية ، كما زعم ان اللغة البونية التي هي اساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى فقد دخلت مصر قبل ان تدخلها الفصحى بالف سنة وانها انحدرت اليها من الهكسوس (1) .

وهذه محاولة جريئة ومأكرة وبطلة للقول بان اللهجة العامية هي لغة قائمة بذاتها وانها كانت موجودة قبل الاسلام والهدف من هذا هو تاصيل الدعوة الى العامية في محاولة لاحلالها لغة للكتابة حيث يردد هؤلاء جميعا العلاقة بين العامية والعربية ويقارنوها بالعلاقة بين اللاتينية واللفات الاوربية الحديثة وهي مقارنة باطلة ومضللة وقد رددنا على هذه الاتهامات في كتابنا « اللغات العربية بين حمايتها وخصومها » .

والمعروف ان ولكوكس كان من اكبر دعاة العامية وانه ترجم الانجيل بالعامية - كما ترجم بعض قطع

ومن اخطر دعوات التبشير والتغريب تلك الدعوى التي تحدث كثيرا عن الادب الشعبي والفلكلور ولا يفهم الاصحاح في هذه الدعوة الاجنبية الا حين نرى جيرة سبتيا وفولرس وولور وويلكوكس في البحث عن ثقافة شعبية يريدون اسنادها الى اللهجات العامية وبذلك يستطيعون ان يقولوا انها « لغة » وشرط اللغة ان تكون لها ثقافة ومن هنا عمدوا جميعا الى جمع المواويل والازجال والحكم العامية .

وقد جرت هذه الدعوة في الوقت الذي كان « دنلوب » يستولي فيه على مقاليد التعليم في مصر ويضع النظام الذي يريد به تغليب العامية والانجليزية واختصر دراسة العربية وكل ما يتصل بها بعد الاحتلال .

ثم جاء « سلدن ولمور » بعد الاحتلال فاضاف الى دعوة من سبقوه الى العامية - الممثل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية .

واثرت مجلة المقتطف وبعض الكتاب من خريجي الارساليات والمعاهد الاجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التي تتلخص في اثاره الشبهات من الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة وضرورة احلال اللغة الاجنبية في التعليم نتيجة الارتباط بالدول الاوربية .

وكان سعد زغلول « اول ناظر للمصارف العمومية هو اكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة عامية للتعليم ، وقد استطاع الاستعمار والنفوذ الاجنبي به ان ينقل السهام الموجهة الى كرومر ودنلوب الى قلب وزير عربي هو الذي تصدى ليحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الانجليزية كاساس للتعليم وتجميد اللغة العربية .

وعارض هذا الاساس كبار قادة الصحافة والسياسة في هذه الفترة وفي مقدمتهم : مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف واشاروا الى مدى الخطر الناتج من هذا الاجراء . وكيف

(1) لزيادة التفاصيل راجع كتابنا (اللغة العربية بين حمايتها وخصومها) وكتاب تاريخ الدعوة الى العامية .

لشكسبير وقد وجدت هذه الترجمات ازدراء او احتقارا كبيرين ولم يتقبلها احد .

كما أجرى هؤلاء الاربعة (سبيتا ، فولرس ، ولور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع عن العامية وذلك بادعاء القول بان لها قواعد محددة .

وكان الهدف من هذه الحملات المتوالية التي بدأت (1880 - واستمرت الى 1926) واضحا هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا الى الامور نظرة عميقة « فصل المسلمين والمغرب من ماضيهم وتفتيت وحدتهم بل هو اكبر من ذلك وخطر وهو السر المكتوم في حنايا الصدور : القضاء على لغة القرآن واحلال لهجات تصبح لغات فينطوي كتاب الاسلام الاكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التي رسمها التبشير والاستشراق ، انبثقت دعوات لطفي السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي في مصر ولجبرهم في لبنان (المعلوف والخوري ومارون حصن) - وما تزال كتابات دعاة العامية في مصر والعالم العربي الى اليوم

تستمد مصادرها ودفاعها وهجومها على الفصحى من هذه الكتابات التي وسدت لهم مجال الدعوة الباطلة .

وكذلك فعل التبشير والاستشراق في كل جوانب الفكر الاسلامي هذا الفعل ، فاعد ركيزة اساسية باقلام رجاله وترك لتابعيه وخدامه الانتفاع بها وترديدها ولقد قرأت في الاقوام الاخيرة رسالة القيت في احدى المؤتمرات الغربية من العامية ، لا تكاد تخرج في مضمونها عن كلام ويلمور وويلكوكس وان كانت بحروف عربية وبتوقيع اسم عربي .

ولم تمر هذه الحملات على اللغة العربية دون معارضة وتفنيد بل لقد واجهت هذه الحملات ردود فعل قوية وكتب الكثيرون يفتدون آراء لطفي السيد ورد عليه مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمان البرقوقي ، وفند الدكتور احمد الحوفي آراء سلامة موسى وفند عبد الوهاب هزام وكثيرون آراء عبد العزيز فهمي .

وما يزال يردد هذه الدعوى كثيرون في هذا الجيل من امثال ميخائيل نعيمة ولويس عوض وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاؤهم باكثر من رجاء من سبقوهم .

صدرت للاستاذ انور الجندي الموسوعة الاسلامية العربية في عدة مجلدات نخص بالذكر منها بحوثا حول الفكر العربي في معركة التفريب والتبعية الثقافية ومعالم الفكر العربي المعاصر والفكر الاسلامي والثقافة العربية ، ولسيادته ايضا « معالم الادب العربي المعاصر » (1871 - 1939) .